

فناناتان مغريتان تساهمان في مجزة كاراكاس

مليكة رياض وحياة الشاوي مغنتاً وأبراً ألمانيتين من أصول مغربية. ولدت مليكة رياض في لوزان من أبو مغربي وأم ألمانية. أما حياة فولدت في مدينة فرانكفورت من أبوين مغاربيين هاجرا إلى ألمانيا في بداية عقد السبعينيات. وإن اختللت مسارات كل من مليكة وحياة في الحياة وتجاربها بحلوها ومرها. إلا أن الموسيقى والغناء الأوبرالي جمعا بينهما. كل منهما تشق طريقها بثبات في عالم الأوبرا. تقيم مليكة في مدينة كارلسروهه وسط ألمانيا، مدينة مقر المحكمة الدستورية الاتحادية. وقد أسست هناك كونسيرتو قصر كارلسروهه الذي يقدم عروضاً موسيقية تمزج بين الاليقاعات والثقافات والشعوب. وأسست حياة في مدينة فوبرتال شمال غرب ألمانيا فرقة "A'LA" التي تقدم عروضاً تفتح أفقاً جديداً في الموسيقى من خلال القفز عن المأثور. شاعت الصدفة أن تلتقي مليكة وحياة في عرض موسيقي رفقة الحكواتي المغربي المقيم في برلين ادريس الجاي. وكان ذلك في السنة الماضية بمدينة دوسلدورف على هامش لقاء نظمته شبكة الكفاءات المغربية في ألمانيا. ومرة أخرى أبي مكر الصدف إلا أن يجمعهما من جديد في كاراكاس تقديم دروس في الغناء في إطار تجربة فريدة من نوعها.

محمد مسعاد

الموسيقى هي
اللغة الأم الأولى
لإنسانية

الفقر والدعارة والمدرارات بكل أنواعها والجريمة المنظمة وإطلاق النار، أضحي كل ذلك من يوميات كاراكاس، ورغم كل هذه الأجراءات المليئة بالاحباط، لم يستسلم ذوي الإرادات الحسنة، حيث لاح بصيص من الأمل. خرج كالعنقاء من الرماد، إنه خوسيي أنطونيو

مجازة كاراكاس

غيم كثيرة تخيم على سماء كاراكاس عاصمة فنيزويلا. يعيش أكثر من 80% من الساكنة تحت عتبة الفقر، ولا يتجاوز عمر 30% من سكان فنيزويلا 15 سنة. تعتبر كاراكاس من بين أكبر المدن العالمية التي تعرف انتشاراً للجريمة.

أبرو : باحث اقتصادي ومؤلف موسيقي أطلق قبل نحو ثلثين سنة وتحديداً في العام 1975 فكرة تربط بين العمل الاجتماعي والموسيقى الكلاسيكية، ويحمل اسم "Sistima" كانت الانطلاقة من العاصمة كاراكاس التي يعيش فيها نحو خمسة ملايين شخص نصفهم أطفال. وذلك بتأسيسه لأوركسترا من الأطفال. وكان الهدف إخراج أطفال كاراكاس من التفوق الذي يعيشون فيه وإنقاذهم من براثن الجريمة. إنها قمة الطوباوية وأحلام اليقظة. وكان أبوه وقتها مقتتنا بكون أن الموسيقى : "ووجدت في الأصل من طرف أقلية لصالح أقلية وبعدها من طرف أقلية لصالح أغلبية ". غير أن تحدي الباحث الاقتصادي والمؤلف الموسيقي أن تصبح الموسيقى "مارسة من طرف الأقلية لصالح الأقلية". وهكذا كان، فالمشروع الذي انطلق بإثنين عشر طفل أصبح اليوم شبكة تضم نحو 300 ألف متخرط من الأطفال والشباب. شعارهم آلة موسيقية لكل مواطن".

ليس ضروريًا إتقان العزف، بل العمل على إدماج الطفل في الأوركسترا كي يتعلم من الذي يكبره سناً. وبعدها ينقل معارفه الذي يصغره سناً. إنه "Sistima" نوع من نظام التعلم الذاتي ونقل المعرفة من جيل لجيل. تخلص فلسفة أبرو في خلق نوع من التعايش بين مجموعات يتعلم فيها الأطفال مع ضرورة الانصات والاحترام. وذلك في أفق تحمل المسؤولية من أجل قطف نتائج مشتركة. على امتداد ثلاثة عقود تطور مشروع أبرو الذي انتشر في أرجاء البلاد ونال شهرة عالمية. إذ تطور تلك المراكز الصغيرة للموسيقى إلى مدارس متخصصة للموسيقى والغناء وانتشرت في البلاد بكمالها حتى غدت نحو 300 مركزاً ومدرسة. وتلقى أبرو دعماً كبيراً من طرف الدولة والموسيقيين العالميين. حيث بدأ كبار الموسيقيين والمغنيين في المجال الكلاسيكي ينظمون رحلات إلى كاراكاس من أجل تلقين هؤلاء الشباب قواعد الغناء والموسيقى.



في الخارج إطلاق للنار، وفي الداخل تسود الموسيقى

وعند الوصول إلى كاراكاس تقول مليكة" وجدت نفسي في محيط شبيه بالغرب. دفء المشاعر وحسن الضيافة وطريقة سيادة السيارات كما لو أنك في شوارع الدار البيضاء". إنه الشعور نفسه الذي خالج حياة التي رجعت بها الذكريات إلى طفولتها حين كانت تشد الرجال

رفقة عائلتها من ألمانيا إلى المغرب خلال العطل الصيفية. حيث أطفال الأسر المهاجرة يلعبون في الشوارع وخليط من اللغات ما بين المغربية والألمانية والفرنسية والهولندية. كانت مهمة مليكة وحياة تلقين هؤلاء الشباب بعض قواعد الغناء الأوبرالي. كانت تجربة رائعة تقول حياة مع شباب منهم من كان يقطع مسافة ثلاثة ساعات من أجل الحضور إلى الحصة التدريبية.

تذكرة مليكة رياض إحدى اللحظات الحرجية، حين كسر قداسة الحصة التدريبية حارس البناء وهو يطلب من الجميع إخلاء البناء جراء إطلاق نار كثيف في الخارج. تقول مليكة "في الوقت الذي بدأت أتبع تعليماتحارس كان الشباب غير مبالين بما حصل ويوافقون الغناء. انتابني شعور أنهن يصررون على التغلب على أجواء الخوف بالغناء. إنهم يعيشون عالمين متوازيين. ففي الخارج إطلاق النار وكل مظاهر الانحراف والجريمة وفي الداخل تسود الموسيقى والغناء".

من دون شك إنها تجربة متميزة في مسار مليكة وحياة خاصة تلك المشاعر المختلطة بين الأمكنة والذكريات. إنها المعجزة التي أنقذت حياة العديد من أطفال فنزويلا وضمنت لكثير منهم مستقبلاً واعدة. حيث أن العديد منهم أصبح أحد أعمدة فرق موسيقية عالمية "كوفيلا-هارمونيكا" برلين أو "فيليارمونيكا" لوس أنجلوس التي يقودها كوستاف دودامييل والذي لم ينس أهداف المشروع الذي أوصله إلى شهرة عالمية. فقد أسس في كاراكاس أوركسترا يشرف عليها تحت اسم سيمون بوليفار.

لم تبق لحظات الخوف وحدها عالقة في ذاكرة مليكة وحياة، بل هناك ذكريات أخرى جميلة. حين زارت مركز مليكة رياض وحياة يضم المركز أطفالاً ابتداءً من السن الثالث من عمرهم. وقد انخرط الجميع في الغناء لتصعد في السماء ذكريات الطفولة البعيدة في شوارع الدار البيضاء ومدن أخرى. غنى الجميع واستمتعوا بأصواتهم الداخلية دون حاجة إلى مترجم. أو كما قالت حياة "عشنا أجواء رائعة والفضل يرجع إلى أصواتنا الداخلية".